فشل مشروع إعادة بناء الدولة

تحدّيات ما بعد الانسحاب

٢/١

د. مهدي جابر مهدي

بعد مرور تسع سنوات على سقوط النظام السابق في ٢٠٠٣ تطرح التجربة العراقية مجموعة من الأسئلة المهمة المتعلقة بالحاضر والمستقبل بالاقتران مع استكمال الانسحاب الأميركي الذي تزامن مع مجموعة قضايا جديرة بالإشارة اليها ومنها :

١- الانسحاب والنهاية الرسمية للاحتلال الأميركي للعراق الذي استكمل يوم ٢٠١١/١٢/١٨ استنادا إلى اتفاقية الانسحاب الموقعة بين العراق والولايات المتحدة في ٢٠٠٨/١١/١٦ .

٢- سلسلة من الأزمات التي تعصف بالبلاد وآخرها ، وليس أخيرها ، ماجرى في ٢٠١١/١٢/١٩ حول قضية اتهام نائب رئيس الجمهورية طارق الهاشمي بقضايا الإرهاب .

٣- جملة من التحديات السياسية والاقتصادية والأمنية الداخلية التي رافقت السنوات منذ ما بعد التغيير والفشل في تقديم حلول ومعالجات جادة لها .

٤- تعدد التدخلات والتأثيرات الخارجية بأنواعها المختلفة ، الإقليمية والدولية والأممية التي وجدت في العراق ساحة مناسبة لتصفية حساباتها مما انعكس سلبا على أوضاع البلد .

كل ذلك ترك وما يزال وسيترك آثاراً على مجمل الأوضاع في المشهد العراقي الذي يتميز بحالة عدم الاستقرار ودوامة العنف والتوتر وإنتاج وإعادة إنتاج الأزمات بأنواعها المختلفة .

ولكن ذلك لايلغي عدة حقائق جديرة بالإشارة نقف عند اثنين منها:

القضية الأولى : في العام ٢٠٠٣ سقط نظام مستبد حكم العراق لأكثر من ٣٥ عاما ومارس أبشع صنوف القمع والتنكيل بحق العراقيين وافتعل الأزمات والحروب مع الدول المجاورة ، وبسقوط النظام المباد طويت صفحة الدولة المركزية طوال ٨٢ عاما " ١٩٢١-٢٠٠٣" بحكوماتها وأنظمتها السياسية الملكية والجمهورية.

القضية الثانية : منذ العام ٢٠٠٣ حتى الآن أنجزت خطوات مهمة غيرت طبيعة وشكل النظام السياسي الذي تحول من الاستبداد باتجاه الديمقراطية ومن المركزية إلى الفيدرالية ، وصدور دستور ٢٠٠٥ الذي تم الاستفتاء عليه كعقد اجتماعي توافقي وما رافق العملية السياسية من مكاسب مهمة كالتعددية السياسية والحزبية والانتخابات والتداول السلمي للسلطة .

في ضوء ذلك يمكننا القول إن العراق مرّ بمرحلة انتقالية ترافقها مجموعة من المشكلات وعلى مختلف الصعد.

هذا التحوّل أنتج ـــ إضافة إلى المكاسب التي تمت الإشارة إليها ـــ ديمقرطية هشة وأزمة ثقة بين القوى السياسية والمكونات الاجتماعية . فالديمقراطية الوليدة في العراق مازال في طور التخلص من ذهنية الماقبل ديمقراطية . لأن الديمقراطية لاتعني مجرد انتخاب وإنما هي منهج وقيم وحالة ثقافية لاتلقينية ، إنها تفترض تأطير وكبح النوازع السلطوية البدائية ، وهذه عملية تتحقق بالتمرين والمراس وتقود إلى نظام حكم يقوم على الترتيبات المؤسسية والاجتماعية الأساسية التي تشيّد هيكلية آليات الحكم وتحدد وسائل ومضمون العلاقات بين الدولة والمجتمع على أسس ديمقراطية .

ذهبوا وتركوا وراءهم ديمقراطية هشة!

لكننا في التجربة العراقية افتقدنا مثل هذه السياسة وحل محلها تقاسم وظيفي للسلطة والثروة وكل ذلك إلى جانب التدخلات الخارجية قادنا إلى فشل مشروع إعادة بناء الدولة بسبب قيامه على ركائز هجينة للمحاصصة الإثني ـــ طائفية ، مما صاغ معادلة ومقايضة تقوم على سكوت الشعب وتخليه عن حرياته وخضوعه لحكم مجموعة تستأثر بالسلطة وتدعم الفساد والإثراء غير المشروع مقابل شعارات زائفة وخطوات ظاهرها ديمقراطي ، كالانتخابات وفق قانون جرت صياغته على مقاس الحكام ، وتعددية سياسية شكلانية وإغراق المجتمع بالتسليع والنزعة الاستهلاكية ، ولكن ذلك لم يفلح في ضمان صمت العراقيين بل قاد إلى التوتر والسخط والتذمر الشعبي الذي تجلى بصورة واضحة في النشاطات الاحتجاجية في بغداد والمحافظات خلال شهر شباط من العام ٢٠١١ ... ومن هنا نجد أن العملية السياسية تواجه مخاطر جدية .

مشكلات ومخاوف

قاد تعثر العملية السياسية والأزمات المتلاحقة إلى مأزق وطني شامل وأدى إلى زيادة المشكلات وتعزيز المخاوف التي برزت بحالات عدّة أقف عند اثنين منها " :

الأولى : في الأعوام ٢٠٠٥ – ٢٠٠٧ التي شهدت تصاعد الصراعات المذهبية أو ما سمي بحرب الطوائف خاصة السنية والشيعية التي رغم أنها خمدت إلا أن جذورها مازالت قائمة .

الثانية : في شباط ٢٠١١ عندما واجهت السلطة الحركة الاحتجاجية الناقمة على المحاصصة والساخطة على فقدان الأمن ونقص الخدمات فواجهتها بالعنف .

ويمكننا الإشارة هنا إلى بعض المخاوف التي تدور في أذهان الكثير من العراقيين وأبرزها :

- استمرار حرب النفوذ في العراق
- الخوف من تفجر النزاعات الطائفية والمذهبية وتصاعد الاستقطاب الطائفي
- اتساع الهوة بين الحكومة والمحافظات وإشكاليات تشكيل الأقاليم
- ضعف المؤسسات وقوة الشخصانية والفردانية
- المشكلات القائمة بين إقليم كردستان والحكومة الاتحادية
- الخلافات الحادة بين الكتل السياسية وتعمق حالات فقدان الثقة
- نقص الخدمات واستشراء الفساد بكل أنواعه
- ضعف الهوية الوطنية وغلبة الولاءات الفرعية

هذه المخاوف والمشكلات وغيرها الكثير ترافق العملية السياسية وتهددها بالفشل الكلي وتضع حاضر ومستقبل العراق في مخاطر كبيرة خاصة إذا ما أضيف لها مستويات تدخل القوى والدول المجاورة في الشأن العراقي . فالمشكلات والمخاوف التي رافقتها دلت على درجة التوتر الذي شهده المجتمع والنظام السياسي . وأثبتت التجربة أن التوافقية السياسية اختزلت في المحاصصة السياسية ولم تقد إلى الاستقرار ، ومن هنا فالتعديلات الدستورية التي نصت عليها المادة (١٤٢) لم تنجز في ظل الدستور الجامد والتجاذبات السياسية " نصت المادة ١٤٢ على ما يأتي :

أولا : يشكل مجلس النواب في بداية عمله لجنة من أعضائه تكون ممثلة للمكونات الرئيسية في المجتمع العراقي مهمتها تقديم تقرير إلى مجلس النواب خلال مدة لا تتجاوز أربعة أشهر يتضمن توصية بالتعديلات الضرورية التي يمكن إجراؤها على الدستور وتحل اللجنة بعد البت في مقترحاتها . كما أن العديد من القوانين مؤجلة انتظاراً للتوافق .

أما قضية تشكيل مؤسسات الدولة فهي الأخرى مرت وتمر بتعقيدات لاحصرلها .. فمنذ الانتخابات البرلمانية في ٢٠١٠/٣/٧ حتى الآن مازالت هذه المسألة بين شد وجذب ، حيث تم الاتفاق على توزيع المناصب في الرئاسات الثلاث ومجلس السياسات استنادا إلى مبادرة رئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني في ٢٠١٠/١٢/٨ ، وتم انتخاب رئيس البرلمان في ٢٠١٠/١١/١١ ،وفي ٢٠١٠/١١/٢٤ كلف رئيس الجمهورية جلال طالباني نوري المالكي بتشكيل الحكومة التي تم تقديم تشكيلتها من ٤٣ وزيرا في ٢٠١٠/١٢/٢١ وبقيت ناقصة حتى يومنا هذا من الوزراء الأمنيين . وإشارتنا إلى التواريخ هنا نريد منها التذكير بأن الفارق الزمني بين الانتخابات وتشكيل الحكومة استغرق ثمانية أشهر .

ويبرز السؤال هنا: هل الخلل في التوافقات السياسية أم في عدم ممارستها بشكل صحيح؟

قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

في ثلاّجة الموتى

ماذا لو أنك استيقظتَ ذات يوم ووجدت نفسك في ثلاجة حفظ الموتى تحيط بك الجثث؟ تبدأ بتلمس جسدك، تفرك عينيك، تتأكد أنك حيّ، ثم إذا لم يكن الرعبُ قد ألجمك وشلّ جسدك ولسانك فإنك سوف تصرخ حتماً بكل ما أوتيتْ من قوّة، لكنْ .. من سيسمع صراخاً قادماً من ثلاجة الموتى، نحن بالكاد نسمع صراخ الأحياء ونأبه له، الأحياء يستغيثون بنا كلّ حينٍ ولا من سامع، فمن سيلتقط صرخة الجثث؟

ليس هذا كابوساً، رغم أن الحاجز الفاصل بين الحقيقة والكابوس يكاد ينعدم في العراق اليوم.

قبل أيام فتح خمسة شبّان عراقيين أعينهم فوجدوا أنفسهم وسط أكوام الجثث في ثلاجة، ولم يكن الشبان الخمسة موتى، بدليل أنهم صرخوا، خبطوا بأيديهم على باب الثلاجة ولم يأتهم سوى صمت الأحياء المشابه لصمت زملائهم الموتى الذين يشاركونهم السكنى في ثلاجتهم التي جمعتْ لأول مرةٍ الحيَّ بالميت.

العملية الإرهابية التي جرتْ في البطحاء غربي الناصرية الخامس من الشهر الجاري قتلت خمسين شخصاً وجرحت أكثر من مئة، المئة والخمسون من الجرحى والقتلى معاً نقلوا إلى "مستشفى الحسين التعليمي"، ووزعوا إلى فئتين: المئة للعلاج والخمسون للثلاجات.

وحدث أن خمسة أشخاص كان قد أغمي عليهم نتيجة الصدمة ونزف الدم وضعوا في المكان الخطأ، نقلوا أحياء إلى الثلاجة وأمضوا هناك يومين كاملين قبل اكتشاف هذا الخطأ "البسيط"!

أبلغت السلطات أهاليهم باستشهادهم وجاءوا لتسلم جثامينهم لكن الصدمة الكبرى حدثت حين فُتحت أبواب الثلاجة وخرج الموتى. الأحياء، خرجوا نصف موتى ونصف أحياء، خائري القوى من اليأس والاستغاثة ومجالسة الجثث ونزف الدم والبرد والجوع والعطش.

جريدة الناصرية الإلكترونية أوردت الخبر عن شهود عيان، وقبلها إذاعة الهدى نقلاً عن الناشط المدني السيّد صلاح الحصيني كما أوردته لاحقاً شبكة "عراقنا" الإخبارية نقلاً عن مصادرها في الناصرية، وفي الخبر إن اثنين على الأقلّ من هؤلاء الخمسة الذين قاموا في اليوم الثالث من بين الأموات، ماتوا فعلاً بعد ساعات من نقلهم لتلقّي العلاج.

نفهم أن ارتباكاً يحصل بعد كارثة كهذه، لكنْ ... أليس هناك فريق طبيّ متخصصّ هو من يقرر إن كانتْ هذه الكتلة من اللحم والعظام جثة أم جسداً، أم أن الأمر متروك لمعرفة وخبرة ودراية مسعفين يحملون كل ما لا يتحرك إلى الثلاجات ليعينوا الإرهابيّ في إتمام عمله "الناقص"؟!

أيّ كابوس عاشه هؤلاء الخمسة على مدى يومين، في برزخ على هيئة ثلاجة بين الموت والحياة، أية دراما عميقة وموحية وفيها إبداع خيال جامح لولا أنها حقيقة، لولا أنها تحفة فنية مصغرة عن حياة عراقية تكاد تكون مثالاً لما نحن عليه: أحياء يظننا الجميع موتى، نستصرخ ولا من يصغي، نستغيث وما من أحد، ويأتي منقذنا بعد فوات الأوان، دائماً بعد فوات الأوان يأتون ويعرفون أن بين ركام الجثث أناساً أحياء كان يمكن إنقاذهم لو أن "المنقذ" كانت له أذنان يسمع بهما.

يا ناس .. نحن الذين في ثلاجة الموتى، هذه آخر أنفاسنا، تعبتْ أيدينا من الطرق على الجدران، نحن نستغيث .. فهل من مجيب؟

كاريكاتير

■ عادل صبري

شهداء الجمهورية وأوهام محافظيها!

عماد حسن

هكذا.. بين ليلة وضحاها، أضحى الملازم نزهان صالح حسين الجبوري شهيداً وبطلاً ونجماً عابراً للطائفية (وهذا اقل ما يستحقه رجل قام بما قام به). القصة تبدأ من بعيد، من الحويجة في كركوك، إذ جاء بطلنا إلى مدينة غريبة (ربما لم يرها من قبل) ليؤدي واجبه الذي يتلخص بتأمين مدخل مدينة الناصرية من جهة الطريق السريع القادم من البصرة. وصادف إن المدخل ذاك يكون مزدحماً بزوار (الأربعينية) المنطلقين من الناصرية والبصرة قاصدين كربلاء سيراً على الأقدام. بطلنا التحق بعمله (واجبه) قبل أيام بعد إجازة اعتيادية قضاها مع عائلته التي تتكون من زوجة وطفلين ووالدين (ربما قرر الانضمام إلى هذا العمل الخطر لإطعام عائلته الصغيرة). كما يقول زميل له (جريح في المستشفى) بأنه كان يهاتف والديه كل يوم ويتحدث مع ابنته (المفضلة ربما) وهو يعدها بجلب هدايا كثيرة لها في المرة القادمة (وليس هنالك مرة قادمة). وبينما كان الملازم الشاب (أضيفت ألقاب أخرى لاسمه المسكين الآن) يرابط في موقعه وهو يراقب سير الزائرين، نبهته حركات غير طبيعية لشخص كان متوارياً بين الناس وهو يحاول أن يدس جسده بين تجمع كبير، توجس الملازم الشاب خيفة من هذا المجهول فأمسكه جيداً واستطاع تثبيته وتقييد حركته.. لكن بعد ثوان حصل الانفجار.. تطايرت الرؤوس والغبار وانتهى كل شيء.

هذه باختصار سيرة الملازم الشاب في يومه الأخير وفي هذا العالم الغريب. لمرات كثيرة فكرت وأنا أضع نفسي مكانه. بماذا فكّر الرجل وهو يحتضن قنبلة تزن أربعين كلغم يحملها شخص ألغى كل تفكير محتمل (حتى لو خاطر) بأي شيء؛ سوى الموت. إنها شجاعة كبيرة دون شك لا أقوى على التفكير فيها، فمواجهة الموت تحتاج إلى انسجام كامل (حد التطابق) مع الذات ومع الفكرة. هل كان الملازم الشاب في تلك اللحظة منسجماً مع ذاته وفكرته يا ترى؟ لا شك، فالنتيجة التي بين أيدينا تؤكد الافتراض، والمنطق (الذي ندعي معرفته) يقول بأن أي شخص يقدر على معانقة أربعين كيلو غراماً من الـ(تي ان تي) هو قادر بالطبع على معانقة الموت. هذا ما يصطلح على تسميته الشجاعة، وهي لا تتطابق مع غير لحظتها المجردة، المؤجلة لكل تفكير باللحظة القادمة.

الملازم الشاب ترك طفلين وزوجة، في مواجهة حياة لا ترحم ومجتمع ليس أقل منها تعسفاً، طفلين لن يراهما بعد اليوم أبداً وزوجة لن يسمع ترحيبها أو توديعها عند عتبة الباب وهو يذهب إلى واجبه الأخير في كل مرة، ترك أبوين ينتظران عودته الدورية من موت قائم لا يحتاج إلا لقرار عابر ليُنفذ. ترك حديقة صغيرة يرعاها وسط جفاف أصاب كل شيء حوله وذكريات (سرية ومضحكة) أخفاها عن أصدقائه المقربين، ترك خيالا كان يتوسله للهروب من غلظة الواقع وحب يختزنه للبقاء في عالم دون حب يذكر، ترك ملابسه المفضلة ودالية ظللت مدخل البيت، ترك واجبه ليتولاه شخص آخر (لا يعرفه ربما)، ترك ضوضاء المدن وغبارها، ترك غربته (عن هذا العالم) منزوعة قرب جثث أخرى غريبة، ترك لغو السياسيين وقصر نظرهم وحيرتهم أمام جلال موته، ترك الأغبياء يدبجون خطبهم البائسة التي لا تليق (أبدا) بموته الفريد، ترك (محافظ ذي قار) يهلوس حول أوهامه الأدبية والفكرية والأيديولوجية، ترك الأخير وهو يصادر موته (أو شهادته، إن شئتم) بقول حول واقع لا واقعَ فيه وحول حقيقة لا حقيقة لها، تركه يقول: (إن استشهاد أفراد من الجيش العراقي جاء لتثبيت المسيرة الحسينية والحفاظ على الجموع الزاحفة نحو كربلاء المقدسة).

نعتذر لك (أيها البطل المسلوب البطولة) عن ضحالة سياسيينا وضآلتهم وخوائهم، نعتذر إليك عن حماقاتهم وتخبطهم ويقينهم الغبي، نعتذر إليك لأنهم أخرجوك من نبلك الشهم إلى مسيراتهم المليونية التي يستعرضون فيها قواهم المؤقتة جدا، نعتذر إليك لأنهم لم يترفقوا بموتك التراجيدي وحولوك بجملة (عابثة) من مدافع عن واجبك وشرفك ووطنك إلى حارس لصناعتهم الرديئة والمزورة لعظمة إمام كالحسين، لأنهم أخرجوك من نفسك وأدخلوك في نفس أخرى ضيقة عليك، لأنهم لم يمنحوك الفرصة لتقول عن موتك الواعي ما أردت قوله، كموا فمك بالموت والإهمال وقالوا عكس ما حلمت به وأنت ترى جسدك (الذي لا تملك غيره) يتطاير في الهواء من عصف الانفجار.

لم يرحمك أحد، لا مجرم (طَشَّر) فؤادك النبيل ليجلس على مائدة نبيه ولا محافظ اختزل لحظتك الكبيرة ليستمر في سلطة (دعوية) تحققها عشرات الزيارات وملايين يخرجون لحسين سلبتموه منا ليعلق على واجهات رياكم ومجالس فسادكم ومطامع دنياكم. لم يرحمك أحد يا صديق حتوفنا الكثيرة والعادية، يا صديق حلمنا بعدالة جرجرها الظلم إلى المنافي والقبور والغياب الأبدي يا صديق أرواحنا التي عذبها أنين البلاد وعاقبة التواريخ. نعتذر إليك ولأبنائك الذين سيسألون بعد عشرين عاماً عن سبب موت أبيهم البعيد: أمات من أجل فقراء يذهبون كل أربعين لتقبيل إمامهم، أم من أجل إمام خبأه سياسيون (غير نزيهين) في جبب شيوخ يقتلونه كل عام؟ هل مات من اجل أن يستمر الإنسان في حبه للعدالة والرحمة أم من أجل أن يستمر الأميون في رفع رؤوس الرموز على رماح مصالحهم المشبوهة؟ هل مات من أجل الحاضر الذي نريد له أن يرفعنا، أم من أجل الماضي الذي يريدون أن يرتفعوا فيه علينا. على الأغلب لن تعرفوا الجواب أبداً، فسامحونا أيها اليتامى والباحثون عن أجوبة تسدون بها فجوات حيرتكم وارتباككم. سامحونا لأن محافظنا .مثله مثل اغلب سياسيينا. خلط بين ما أراد قوله أبوكم (نزهان) وبين ما أراد هو قوله واصفاً موته بما اعتقده وبما لم يخطر على بال بطلكم يوما، فقتله مرة أخرى، فجره مرة أخرى وعلى مرأى ومسمع الملايين، ولأن محافظنا جعل من أبيكم قرباناً في مذبح (حزبه) وبقينا نحن المتفرجين على لعبته، صامتين (كأبيكم الذي قُتل مرتين). من أجل هذا ومن أجل هذا كله، نطلب الصفح منكم أيها اليتامى (كل اليتامى) الذين ستسألون عن موت أبيكم يوماً دون أن يأتيكم جواب.